«١١»

عبدالله بن عمر بامخرمة

الشافعي الصغير - مولده - نشأته - رحلاته - أول سكرتير للدولة - مؤلفاته - مقدرته الأدبية - أسرته - وفاته

❖ الشافعي الصغير:

عبدالله بن عمر بن عبدالله بن أحمد بامخرمة السيباني الحميري، أحد أصحاب الكفاءات النادرة والمواهب الخارقة والقوى العقلية الممتازة في التاريخ الحضرمي، ولقد أدهش كثيراً من معاصريه بسعة اطلاعه وكثرة معلوماته ووفرة ذكائه، حتى قالوا عنه ما نحسبه نحن اليوم من قبيل المبالغات.

فقد ذكروا أن العلامة الشيخ أحمد بن عمر الحكيم مفتي عدن ومحدثها أفتى بأن من حلف بأنه ليس في زمان الفقيه عبدالله بن عمر بامخرمة على وجه الأرض من هو أعلم منه لم يحنث، وظاهر أن الحكيم يقصد بذلك الإشادة بغزارة مادة العلامة بامخرمة في فقه الإمام الشافعي، فقد كان بحق فقيهاً لا يجارى، حتى إنه كان يعتبر من أقران ابن حجر الهيتمي صاحب التحفة وأحد عباقرة الشافعية.

كما ذكروا أن العلامة عبدالله بن عمر كان إذا دخل بلداً امتنع مفتيها عن الإفتاء ما دام موجوداً بها، وكان علامة اليمن الشيخ عبدالرحمن بن زياد الزبيدي إذا استفتاه أحد من أهالي عدن بعد إقامة الفقيه بامخرمة بها

أحاله عليه، وهكذا كان صاحب الترجمة معروفاً بين أهل عصره بأنه حجة يعتمد عليه في مذهب الشافعية، حتى لقبه الناس في ذلك العصر بـ«الشافعي الصغير».

❖ مولده، نشأته:

ولد بمدينة الشحر في جمادى الآخرة سنة **٩٠٧**هـ وبها نشأ وبدأ دراسته، فحفظ القرآن الكريم وهو في سن السابعة، ودرس مبادئ العلوم الدينية واللغوية على علماء الشحر وعلى أبيه الصوفي الشاعر الكبير عمر بن عبدالله وعلى عمه العلامة المؤرخ الطيب بامخرمة وعلى القاضي العلامة عبدالله بن أحمد باسرومي أحد علماء الشحر، وكان الأستاذ باسرومي يقول: استفدت من الفقيه عبدالله بامخرمة أكثر مما استفاد مني، وكان معظم تحصيله وجل انتفاعه بالإمام عبدالقادر الحباني، وكان هذا الإمام يجل الفقيه عبدالله ويفضله على والده الشيخ عمر الصوفي الكبير.

❖ رحلاته:

وكانت اليمن والحجاز في ذلك العهد مورداً للعلم يفد إليها الناس من الأقطار العربية لينهلوا من معارفها وعلومها، وقد رحل صاحب الترجمة إلى زبيد والحجاز لإتمام دراسته والاتصال بكبار العلماء حتى قيل: إنه نبغ وتفوق في أكثر من عشرين فرعاً من فروع العلم من بينها - عدا علوم الدين واللغة - علوم الحساب والجبر والمقابلة والفلك، وشارك في علم الطب، وكان الفقه هو العلم الذي تخصص فيه وعرف به بين الناس حتى كان الناس يرجعون إليه لحل المشاكل ويأتون إليه من كل مكان فيجدون عنده ما يطلبون من فتاوى تسكن إليها نفوسهم وتطمئن لها قلوبهم، وقد كان عمه الطيب بامخرمة يعجب بقدرته على حل غوامض المسائل والبت في كبريات المشاكل.

وكان صاحب الترجمة من الفقهاء المعتدّين بأنفسهم الواثقين من

ثقافتهم، وقد منحه الله طلاقة في اللسان وقدرة على التأثير، وقد تقدم لمناظرات علمية مع كبار العلماء ومن بينهم العلامة الشيخ عبدالقادر بن أحمد الإسرائيلي الحباني، ولما حج سنة ٩٤٩هـ طلب مناظرة علامة الحجاز وأكبر فقهاء الشافعية الشيخ أحمد بن حجر الهيتمي، وقيل: إن ابن حجر أحجم عن مناظرة الفقيه الحضرمي معتذراً بما يقال عن الفقيه الحضرمي من حدة الطبع وسرعة الغضب وأنه قد تؤثر غلبة أحدهما على الآخر في الجماهير المتعلقة بهما فيرتاب الناس في مقدرة المغلوب العلمية ويتشككون في فتاويه.

وروي أنه لما دخل الفقيه بامخرمة إلى الحرم المكي استقبل البيت الحرام وأحرم بركعتين ولم يطف ولم يتنبه من أثر الدهشة للسنة المتبعة في تحية البيت، وكان العلامة ابن حجر معتكفاً في الحرم مع بعض طلبته، فأرسل إليه ابن حجر أحد تلاميذه لينبهه، فوقف التلميذ في كثير من الأدب إلى جانب الشيخ وهو يصلي وأسرّ في أذنه قائلاً: يا شيخ ما تحية البيت؟ فقطع الفقيه بامخرمة صلاته وشرع في الطواف.

❖ أول سكرتير للدولة:

ولم تخفَ مواهب الفقيه بامخرمة ومقدرته العلمية على السلطان بدر أبي طويرق فصمم على الانتفاع به والاستفادة منه وولاه قضاء الشحر ومنصب الإفتاء فكان بمثابة رئيس القضاة، كما كان كاتم سر السلطان «سكرتيره» يستشيره في شؤونه الخارجية، ويفوض إليه قراءة الأوراق الرسمية والإجابة عليها، فكان يجيب على الرسائل التي ترد إلى السلطان بدر من ملوك القسطنطينية ومصر والهند وأمراء الحجاز، وهو الذي قرأ فرمان السلطان سليمان القانوني العثماني للجمهور ببندر الشحر، وكان مسؤولاً عن نواحٍ أخرى في الإدارة كما سبق، فهو لذلك أول سكرتير للدولة في حضرموت.

وبالرغم من حظوة الفقيه بامخرمة لدى السلطان بدر وقربه منه، فقد كان والده الشيخ عمر ناقماً على أبي طويرق حانقاً عليه، وربما تكلم في بعض المجالس عن السلطان بدر بما لا يرضيه، وقيل في سبب ذلك أن الشيخ عمر كان حريصاً على بقاء بلدته الهجرين بعيدة عن السلطنة الكثيرية، فنفاه أبو طويرق إلى الساحل غير مرة، ثم رأى أن يضعه تحت مراقبته فاستقدمه إلى سيئون حيث أقام بها إلى أن مات رحمه الله.

❖ مؤلفاته:

ترك الفقيه بامخرمة آثاراً علمية قيمة تُعطي القارئ صورة عن النشاط العلمي الذي كان يقوم به صاحب الترجمة علاوة على أعماله الرسمية في الدولة، ونحن ننقل عن المؤرخ الطيب بافقيه جانباً من مؤلفات الفقيه بامخرمة كدليل على ما أشرنا إليه من مشاركة الرجل في كثير من العلوم والفنون:

١- حاشية على أسنى المطالب شرح الروض.

٢- الفتاوى الكبرى.

٣- الفتاوى الصغرى الهجرينية.

٤- المصباح: شرح العدة والسلاح.

٥- النكت على تحفة المحتاج لابن حجر.

٦- شرح الرحبية في الفرائض.

٧- شرح منظومة له في ذوي الفروض والرد عليهم.

٨- شرح منظومة له في قسمة التركات.

٩- تراجم تاريخية كتكميل لطبقات الإسنوي.

١٠- شرح منظومة له في ظل الاستواء.

١١- رسالة في علم الجبر والمقابلة تتعلق بالبيوع والضمان والإقرار

والوصايا والصداق والعتق.

١٢- رسالة في المناسك.

١٣- رسالة في علم المساحة.

١٤- رسالة في الربع المجيب.

١٥- رسالة في سمت القبلة.

١٦- رسالة في معرفة الأوقات والساعات.

١٧- رسالة في اختلاف المطالع واتفاقها.

١٨- رسالة في القهوة.

مقدرته الأدبية:

للفقيه بامخرمة شعر جيد يضعه في مصاف الشعراء الموهوبين، وكان إلى جانب مقدرته الشعرية حسن الإنشاء جيد الأسلوب موهوباً في الناحية الخطابية، وشعره مزيج من ألون مختلفة فيها الغزل والمديح والرثاء والمواعظ والحكم وشكوى الزمان، وله شعر علمي يرد فيه على مخالفيه في العقيدة، ومن أشهر مدائحه قصائده في السلطان بدر والسلطان سند بن محمد الوداد صاحب ميفع، وكانت بينه وبين الأديب الشاعر محمد بن أحمد باوزير البيتي مساجلات شعرية ومكاتبات نثرية كما أشار إلى ذلك المؤرخ الطيب بافقيه.

ومن جيد شعره قصيدته التي يقول في مطلعها:

مثلي يصان مدى الأزمان جانبه ولا يروّعه دهر يحاربه

والتي يقول فيها:

أنا الذي السعد والعلياء تخدمني وطالع المجد في بيتي وغاربه

من معشر زان في الآفاق نعتهم كالدر ينظمه في السمط ثاقبه

من كل مضطلع بالعلم متصف بالجود تهمي على الدنيا سحائبه

وكل طود من الأمجاد تحسبه إذا تكلم بحراً هاج صاخبه
لا يخضعون لجبار أخافهم قد رجَّت الأرض من شرٍ كتائبه
ولا يدينون في سر ولا علن إلا بحق بدت صحواً مذاهبه
أُبدي التغابيَ عن أشياء أعلمها كالسيف لان وقد حزت مضاربه

وله من مطولة في الدفاع عن الأشاعرة:

أخطأت في ذم الإمام وحزبه فهم دعاة الحق للرحمن
لولا الإمام الأشعري ونصره للسنة البيضاء كل أوان
لعلا الفلاسفة الطغاة ظهورنا وتلاعبوا بالدين والإيمان
لكنَّ ألْسُنَهم وأقلاماً لهم أزرت بكل مهند وسنان

ويقول مضمناً الشطر الأخير:

قالت أراك من الذكا في غاية جلَّت عن الإسهاب والإطناب
فعلام تبدي في الأمور تغابياً فأجبت سيد قومه المتغابي

وقال معرضاً بفقره:

وعاذلة أبدت لفقري توجعاً وقالت أتاك الفقر من جانب الندا
فقلت لها لا تطمعي في تغيري لكل امرئ من دهره ما تعوّدا

ويشير إلى الظروف التي اضطرته مرغماً للرحيل عن حضرموت والإقامة بعدن في آخر حياته:

فوالله ما جانبت أرضيَ عن قِلىً ولكن لعجزي عن حقوق لوازم
وما العذر لي إن كنت عند قرابة يرجّون نفعي من فقير وغارم
وما أشتهي طول الحياة للذة يعيش ذوو اللذات عيش البهائم
ولكن لكسب المجد ما عشت والثنا ونفع الورى طراً وبذل المراحم

❖ **أسرته:**

قَلَّ أن يجتمع في أسرة من الأسر عدد من الشخصيات العلمية البارزة يعيشون في عصر واحد تقريباً، وإذا تم ذلك فلن يكون بمحض الصدفة، وإنما نتيجة للتربية الحكيمة والمؤثرات الخاصة التي تحيط بالأسرة، وأسرة صاحب الترجمة غنية بالفضل والأدب والعلم إلى درجة تلفت الأنظار وتبعث على الإعجاب، وإنها لجديرة بالدراسة العميقة من علماء الاجتماع للوقوف على جذور هذه الظاهرة الاجتماعية وآثارها في المجتمع، وتاريخ حضرموت حافل بالأمثلة في كثير من أسر السادة العلويين والمشايخ وغيرهم.

ولنأخذ أسرة صاحب الترجمة على سبيل المثال:

«١» والده العلامة الصوفي الشاعر الكبير عمر بن عبدالله المتوفى سنة **٩٥٢**هـ، وهو شاعر مكثر، وله ديوان ضخم ومنثور جيد على أسلوب الصوفية.

«٢» جده العلامة الفقيه مفتي عدن ومدرسها عبدالله بن أحمد المتوفى سنة **٩٠٣**هـ، تولى قضاء عدن، وله مؤلفات قيمة.

«٣» عمه الفقيه المؤرخ الطيب بن عبدالله المتوفى سنة **٩٤٧**هـ في عدن، وله مؤلفات تاريخية منها:

النسبة إلى المواضع والبلدان، وكتاب ثغر عدن. وقد تولى قضاء عدن سنة **٩٣٤**هـ.

«٤» عمه الفقيه أحمد بن عبدالله بن أحمد المتوفى سنة **٩١٠**هـ، كان فقيهاً بارعاً في علوم كثيرة وخصوصاً في علم الفرائض والحساب.

«٥» ابن عمه الفقيه القاضي محمد بن الطيب توفي سنة **٩٣٣**هـ.

«٦» ابن عمه الخطيب المحدث الفقيه عبدالله بن الطيب توفي سنة **٩٧٥**هـ.

«٧» عمه عبدالله بن عبدالله المتوفى بـ «حرض» من أرض اليمن، كان ذا

ذكاء مفرط، وله معرفة باللغة والنحو، وله ديوان شعر جيد.

«٨» محمد بن عمر قضام بامخرمة، يجتمع في الأب السادس مع الفقيه عبدالله بن أحمد، كان فقيهاً بارعاً، توفي سنة ٩٥١هـ.

وفاته:

قضى صاحب الترجمة الجانب الأكبر من حياته في حضرموت متخذاً من مدينة الشحر مقراً لإقامته وسكناه، ثم انتقل إلى عدن في آخر سني حياته حيث تولى هناك منصب الإفتاء ونظارة الأوقاف ووظائف التدريس في المدرسة الظاهرية والمدرسة المنصورية والمدرسة الفرحاتية، وكان يعقد دروساً عامة للجماهير في الجامع.

وكذلك استمر مباشراً وظائفه العلمية مقبلاً على التأليف والإنتاج الفكري والدعوة إلى الله وبث تعاليم الدين الإسلامي، إلى أن وافاه أجله في العاشر من شهر رجب سنة ٩٧٢هـ، ودفن عند مشهد الشيخ جوهر المعروف بعدن.